(مدينة رقادة في بلاد المغرب)

أ.م.د. سادسة حلاوي حمود/ جامعة واسط/ كلية التربية / قسم التاريخ

توطئة

تعد مدينة رقادة من المدن الأغلبية المهمة التي ظهرت في أفريقية في القرن الثالث الهجري في زمن الأمير الأغلبي إبراهيم الثاني، والتي تمتعت بموقع جغرافي مهم أصبحت بموجبه من أجمل المدن التي ظهرت في أفريقية بسبب جمال طبيعتها وكثرة بساتينها وطيب هواتها. وقد مرت بأدوار تاريخية مهمة على المستوى العمراني والاقتصادي والحضاري حتى غدت واحدة من أهم المدن العربية الإسلامية في مجال تطور الفكرية بها والتي تمثلت في تأسيس بيت الحكمة فيها على يد الأمير إبراهيم الثاني. ويأتي سبب اختيار الموضوع (مدينة رقادة في بلاد المغرب)، لغرض تسليط الضوء على الجوانب العمرانية والاقتصادية والعلمية في المدينة، إذ تم تقسيم البحث على أربع محاور سبقتها مقدمة ولحقها خاتمة، تناول المحور الأول الموقع والتسمية لمدينة رقادة، فيما تعرض المحور الثاني الى الجوانب العمرانية في المدينة، وخصصنا المحور الثالث لبحث الأوضاع الاقتصادية في المدينة، أما المحور الأخير فقد عقدناه لتسليط الضوء به على الحركة العلمية في المدينة. ومن أهم المصادر التي اعتمد عليها البحث كتاب (رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وأفريقية) للمالكي، الذي أحتوى على معلومات غزيرة عن حياة فقهاء وعباد أفريقية المشهورين وكذلك تزويدنا ببعض المعلومات التاريخية عن المدينة. أما كتاب البيان المغرب لأبن عذارى (ت 695هـ) والذي هو عبارة عن تاريخ عام للمغرب والأندلس من الفتح العربي من عصر بني مرين في المغرب الأقصى، ويقع في 14 جزء وترجع أهمية الكتاب أن ابن عذارى اعتمد في كثير من رواياته للأحداث على مجموعة من المصادر التي في حكم المفقودة مثل: كتاب أفريقية والمغرب للرفيق القيرواني. كما أفاد البحث كتاب أبي عبيد البكري (ت 487هـ) المغرب في ذكر أفريقية والمغرب، إذ أوردة معلومات تاريخية وجغرافية مفصلة عن المدينة، كما أفاد البحث من بعض الكتب الجغرافية مثل: كتاب (معجم البلدان) لياقوت الحموي (ت 626هـ)، والذي هو موسوعة تاريخية جغرافية لاغنى للباحثين عنه بالإضافة إلى كتاب (صورة الأرض) لابن حوقل وكتاب (أحسن التقاسيم) للمقدسي وغيرها من المصادر الأخرى.

ولم تكن المراجع الحديثة ببعيدة عن فائدتها لبحثنا هذا، فقد أفدنا منها بمعلومات في غاية الأهمية، ويأتي في طليعتها كتاب (تاريخ المغرب العربي) لسعد زغلول، وهو يقع في جزأين، الجزء الأول يتحدث عن تاريخ المغرب العربي من الفتح إلى بداية قيام الدويلات المستقلة أما الجزء الثاني فهو مختص بالحديث عن تاريخ الأغالبة والرستمين وبني مدرار والادارسة وقيام الدولة الفاطمية.

أما كتاب (تاريخ المغرب في العصر الإسلامي) للسيد عبد العزيز سالم فقد عالج النواحي التاريخية والاقتصادية والعمرانية في المدينة، وتأتي موسوعة حسن حسن عبد الوهاب (ورقات عن الحضارة العربية بأفريقية التونسية) في طليعة المراجع التي تم اعتمادها، وهي تعد درة فريدة وموسوعة شاملة تنتقل بالقارئ من موضوع لآخر في تشويق وتنويع محبب بالإضافة إلى كتابة خلاصة تاريخ تونس. كما اعتمدنا على كتاب (مراكز الثقافة في المغرب) لعثمان الكعاك الذي أمد بحثنا بمعلومات مهمة عن الجوانب العلمية في مدينة رقادة، بالإضافة إلى كتاب (المغرب الإسلامي الحياة الاقتصادية والاجتماعية) لحبيب الجنحاني وغيرها من المراجع التي أرخت لمدينة رقادة في المدة التي تخص البحث.

أولاً– الموقع والتسمية:

رقادة مدينة بناها إبراهيم بن احمد بن محمد بن الأغلب بن إبراهيم بن الأغلب سنة 263 هـ/ 876 م، وتقع على مسافة أربعة أميال أو ثمانية كيلومترات إلى الجنوب الغربي من القيروان[1].

ويتفق كل من الأصطخري وعبد المنعم الحميري في موقع المدينة ومساحتها وهي من القيروان أربعة أميال ومساحتها ودورها أربعة وعشرون ألف ذراع وأربعون ذراعاً وكثرة بساتينها، وليس بأفريقية أعدل هواءاً ولا أرق نسمياً ولا أطيب تعرية منها، وهذا الاتفاق بين الاثنين في المساحة والوصف في الثناء على

(1) **البكري، أبو عبيد، المغرب في ذكر بلاد أفريقية والمغرب**، ص27–29.

المدينة يدلل على التوافق في مصدر المعلومة ربما، والمرجح أن يكون الحميري قد أطلع على الأصطخري ومؤلفاته في وصف المدن الجغرافية[1].

وكذلك أنه مطلع على ياقوت الحموي الذي لا غنى للجغرافيين عن معجمه، ولكن ياقوت[2]، يختلف عن الاثنين في التفاصيل والدقة في إيرادها ويذكر أن بين القيروان ورقادة أربعة أيام واتفق مع الاثنين في بقية التفاصيل، وليس هناك خلاف في أن سبب بنائها هو رغبة الأمير إبراهيم بن أحمد الذي يعرف بإبراهيم الثاني أو الأصغر للتفريق بينه وبين جده الأعلى إبراهيم، وفي أن يجاري علماء الدول وكبار الحكام من منشئ الدول الذين يبادرون إلى تأسيس مدينة أو مدن تخلد مع الأيام ذكرهم[3]. كما أنها تقع في سهل فسيح ممتد كثير البساتين والمزارع ويصفه المؤرخون بأنه كان ضيعات فل أحداث البناء فيه وهو أخصب الأراضي المحيطة بالقيروان[4].

ويضيف ابن حوقل أنها في نحر البحر من القيروان في مرحلتين كثيرة العمارة حسنة السور والعمارة ضيعة فيها سور من حجارة وله بابان ليس لها في رأيه من الأرض شيعة ولا فظية[5].

وأشار كل من اليعقوبي والمقدسي أنها خارج القيروان وهي عبارة عن معسكر آل الأغلب وعليها عدة حيطان ومقامهم بها إلى أن استحدث عبيد الله المهدي المهدية على شاطئ البحر فأقام بها وانتقل عن رقادة وهي صورة بالجبل والبحر[6].

(1) **الأصطخري، المسالك والممالك، ص200؛ الحميري، الروض المعطار، ص271.**

(2) **الحموي، معجم البلدان، ج3/ ص63.**

(3) **الحموي، م.س، ص63، حسن حسن، خلاصة تاريخ تونس، ص89–90، سعد زغلول عبد الحميد، تاريخ المغرب، ج2، ص216–218.**

(4) **حسن، م. س، ص218.**

(5) **ابن حوقل، صورة الأرض، ص73.**

(6) **البلدان، ص345؛ أحسن التقاسيم، ص226،**

وأستنتج السيد عبد العزيز سالم معتمداً على البكري الذي أورده اختلافاً في عدد الأيام في المسير إليها من القيروان مع أن المدينة تم انجازها لأبن الأغلب سنة 263–264 هـ ومنذ ذلك التاريخ أصبحت مقراً رئيسياً لأبن الأغلب، ويبدو أن معلوماته بذكرها معتمداً على البكري[1].

أما بخصوص التسمية فأن للمؤرخين والجغرافيين عدة تفسيرات بشأن تسميتها برقادة ومعناها ما ذكر أن اسمها مشتق من الرقاد أو النوم[2]، وذلك أن الأمير إبراهيم بن الأغلب قد أصابه أرق شديد وشرد عنه النوم أياماً، فعالجه اسحق المتطيب، وهو الذي ينسب إليه الأطرقيل، فأمر الأمير بالخروج والتنزه والمشي، فلما وصل إلى موضع رقادة نام فسميت رقادة من يومئذ واتخذها دار ووطناً وانتقل إليها من مدينة القصر القديم[3].

وفضلاً عن ذلك فقد ذكرا كل من البكري والحميري أن اسمها مرتبط بحادثة سياسية لخروج الأباضية بقيادة أبا الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافري القائم بدعوة الأباضية بطرابلس لما نهض إلى القيروان لقتال ورفجومة وكانوا قد تغلبوا على القيروان مع عاصم بن جميل وهم من الخوارج والتقى بهم بموضع رقادة وهي آنذاك منية بقتلهم هناك فتلأ ذريعاً فسميت رقادة لرقاد جثثهم بعضها فوق بعض وفي عقاب مقتل حبيب بن عبد الرحمن الفهري سنة 140هـ[4]. وهناك رواية تغير أن أسمها مستوحى من أسم الرقة مدينة المنصور والرشيد، إذ فيه تقرب إلى العباسيين ذوي الفضل على العائلة الأغلبية، فكما سميت مدينة العباسية من قبل إبراهيم الأغلبي نسبة إلى العباسيين استوحى إبراهيم الثاني اسم مدينة رقادة من الرقة تقرباً إليهم أيضاً. وهناك أدلة تاريخية كثيرة في نسبة أسماء المدن والمواقع إلى شخصيات حاكمة ذو عائلات كالمحمدية والمهدية والمنصورية[5].

(1) عبد العزيز سالم، تاريخ المغرب الكبير، ص371.

(2) البكري، م. س، ص27، سعد زغلول، م. س، ص116–117.

(3) البكري، م. س، ص27، سعد زغلول، الاستبصار في عجائب الأمصار، ص116.

(4) البكري، م. س، ص27؛ الحموي، م.س، ص63؛ شاكر مصطفى، ا لمدن الإ سلامية ح تى الع صر العث هاني، ص214 – 215.

(5) محمد الشابي، دائرة المعارف التونسية، ص91.

وبعد انتقال ابن الأغلب إليها حرم بيع النبيذ في القيروان وحلل بيعه في رقادة، وهذا يقودنا الى الحكم بأن المدينة بنيت للهو والتخلص من أعباء الحكم[1]. أما عن خراب المدينة فعندما استولى عليها أبو عبد الله الشيعي وهروب زياد الله الثالث منها، ودخول عبيد الله المهدي الفاطمي إليها[2]، وبقي فيها إلى سنة 308 هـ ثم انتقل بعد ذلك إلى المهدية، فقدت رقادة مكانتها بالتاريخ وأخذ الخراب يدب في ديارها وقصورها، ويوضح السيد عبد العزيز سالم أنها أصبحت محجراً تستخرج منه مواد البناء في العصور التالية[3].

ثانياً– الجانب العمراني لمدينة رقادة:

يجمع المؤرخون على أن أفريقية شهدت في عهد الأغالبة تطوراً عمرانياً كبيراً، إذ كان الكثير من أمراء هذه الدولة قد عرفوا بحبهم للبناء والتعمير، وياتي الأمير إبراهيم الثاني في مقدمة هؤلاء الأمراء؛ لما قام به من أعمال عمرانية ضخمة تعد أحدى مفاخر الدولة المذكورة في هذا المجال، كما إنها تعد خير دليل على جهوده في هذا التطور، إذ لم يلبث بعد توليته الحكم حتى شرع في بناء مدينة رقادة على ثمانية أميال جنوب القيروان والتي أعجبت الجغرافيون والرحالة المسلمون بحسن موقعها ودقة تخطيطها وهندستها وجمال قصورها وبساتينها وليس بأفريقية أعدل هواء ولا أرض نسيماً ولا أطيب تربة من مدينة رقادة فأن من دخلها لم يزل ضائعاً مستبشراً من غير سبب[4].

وفضلاً عن ذلك أهتم ببناء القصور والمساجد واختط فيها الأسواق وزودها بالمنشات الاقتصادية والاجتماعية الكثيرة وزينها بالحدائق الغناء والبساتين العديدة التي غرست بأنواع الأشجار والرياحين المحلية والمستجلبة وأجرى إليها المياه من مساحات بعيدة لتجمع في صهاريج ضخمة ثم توزع منها إلى مختلف أجزاء منشأتها العمرانية وحدائقها وبساتينها في نظام بديع[5].

(1) **عبد العزيز سالم، م. س، ص371؛ سعد زغلول، الاستبصار، ص116.**

(2) **البكري، م. س، ص27؛ عبد العزيز سالم، ص456– 457.**

(3) **البكري، م. س، ص27.**

(4) **سعد زغلول، الاستبصار في عجائب الأمصار، م. س، ص116.**

(5) **الحموي، م. س، ص55، ج3.**

ثم انتقل إليها بعد ذلك من العباسية مع أهل بيته وما شبته ورجلات دولته ودواوين حكومته ونقل إليها الكثير من النجار والصناع ورجال العلم، كما عمل على أجرى التنظيم والتحصين كلما تطلب الأمر ذلك، فإذا حولها سوراً وخندقاً وجعل لها أبواباً جديدة محكمة الصنعة، كما عمل على تشيد القصور الضخمة منها وكان من أشهر القصور التي شيدها فيها قصر بغداد والمختار والفتح[1]. وبناء قصر الصحن وأسى في أحد مبانيها جامعة بيت الحكمة وسرعان ما تبعت هذه المدينة بوصفها العاصمة الجديدة، بما أضيف إليها من منشآت جديدة وزيادة أسواقها بالإضافة إلى بناء الفنادق التي كانت نستخدم مبيت الوافدين إلى المدينة ونزول المسافرين بها، كما قام ببناء الحمامات الكبيرة، داخل المدينة وكذلك دور العلم التي تتماشى مع الزيادة المستمرة لسكانها حتى غدت في سنوات قليلة من أعظم مدن أفريقية عمراناً ومن أكثرها نشاطاً[2].

ولم تقتصر على سكنى الأمير وحاشيته فقط بل سكنها أيضاً بعض أهل الخدمة والمقربين من الأمراء الأغالبة، وقد حمل هذا الأتساع المطرد لمدينة رقادة بن الأبار أن يقول أنها أصبحت اكبر من القيروان، والفزوني أن يصفها بأنها من أحسن بلا الله[3].

راعى إبراهيم الثاني في تخطيط المدينة أن تكون طرقها تساعد على تجوال العربات التي كثر استعمالها في العصر الأغالبي[4]، ولم يتوقف النشاط العمراني عند جهود إبراهيم الثاني، بل وأهل من جاء بعده من الأمراء العناية بها وأضاف إليها عدة منشآت جديدة كان أهمها ما عمره فيها الأمير زياد الله الثالث أخر أمراء الأغالبة وحفيد إبراهيم الثاني الذي حفر بها صهريجاً ضخماً طوله خمسمائة ذراع وعرضه أربعمائة ذراع وأجرى إليه ساقية ضخمة تصب فيه على مدار الساعة في حين يخرج الماء الزائد عن سعته من قناة أخرى نتيجة إلى البساتين لريها، ولضخامة هذا الصهريج الذي هو عبارة عن بحيرة

(1) **ابن عذارى، البيان المغرب، ج1، ص117؛ ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ق3، ص27.**

(2) **حسن حسن، م. س، ص89.**

(3) **دائرة المعارف التونسية، م. س، ص90.**

(4) **ابن عذارى، م. س، ص92 – 93.**

اصطناعية سماه البحر، كما بنى فيها قصراً على أربع طوابق فسماه العروس وقد اتفق عليه مئتين وأثنين وثلاثين ألف دينار حتى أصبحت لهذه الزيادات المتواصلة أكبر من القيروان[1].

وهكذا لم نزل دار الملك لأمراء الأغالبة حتى انقضاء دولتهم سنة 296 على يد أبو عبد الله الشيعي[2].

ثالثاً- الأوضاع الاقتصادية في مدينة رقادة:

شهدت الأوضاع الاقتصادية في مدينة رقادة تطوراً كبيراً في عهد الأغالبة، فقد زودنا المؤرخ والجغرافي اليعقوبي بمعلومات مهمة عناوين وبخاصة فيما يتعلق بالزراعة والصناعة والتجارة مما يساعدنا على معرفة عوامل الازدهار الاجتماعي والاقتصادي والسياسي الذي اتسم به عهد الأغالبة في هذه المدينة مما دفع الكثير من الناس إلى مزاولة حرفة الزراعة والاهتمام بمتطلباتها، فظهرت المناطق الزراعية الكثيرة التي اشتهرت بزراعة أشجار الزيتون والنخيل والكروم[3].

لذلك يقول ابن خلدون (فعلى نسبة مال الدولة يكون الرعايا وعلى نسبة يسار الرعايا وكثرتهم يكون مال الدولة راساً للعمران وكثرته)[4]، وهنا أشارة أبن خلدون بوضوح في هذا النص إلى العلامة الوثيقة بين وضع الدولة والرخاء الاقتصادي لها وللرعية معناً، حيث أن حال الدولة الأغالبية تطور إلى الأحسن في عهد الأمير إبراهيم مما نعكس على الحياة الاقتصادية، إذ شهد اقتصاد رقادة في هذه الفترة نهضة واسعة في مختلف فروعه مما جعل الرخاء يعم قطاعات كثيرة من الرعية بالرغم من بعض المعوقات التي تمثلت في الثورات والاضطرابات. ويأتي في مقدمة الأنشطة الاقتصادية:

1- الزراعة: من المعروف أن المناطق الكبرى المنتجة للحبوب تقع في حوض البحر المتوسط، كانت ثلاث مناطق هي أفريقية ومصر وبلاد الشام، لذلك اشتهرت مدينة رقادة بكثرة منتجتها الزراعية وأصبحت

(1) **حسن حسن، م. س، ص**90.

(2) **عبد العزيز سالم، م. س، ص**457.

(3) **اليعقوبي، البلدان، ص**350.

(4) **ابن خلدون، المقدمة، ص**306.

تنافس مدينة القيروان في وفرة الإنتاج الزراعي المتمثل بالأشجار كالزيتون والتين والكرمة وغيرها[1]. لذلك عمل الأغالبة على زيادة الاهتمام بتعمير شبكة قنوات الري من جديد في المدينة، فأضيفت إليها العديد من السواقي والقنوات الحجرية والخزانات الضخمة لحفظ المياه وتوزيعها عند الحاجة، وقد شهد عصر إبراهيم الثاني ازدهار النشاط الزراعي بأبهى صورة ويعود ذلك إلى عدة أسباب:

– أن الازدهار الاقتصادي واستيعاب الأمن هما السبل الكفيلة لازدهار الحضارة وما دام أخذ على عاتقه النهوض بدولته نهضة شاملة لابد أن تحظى الزراعة بوصفها أحد أركان الاقتصاد الرئيسية بالقدر الذي نستحقه لما توفره من رخاء لرعيته فضلاً عن قوتها الضرورية للحياة والتي كانت في زيادة مستمرة[2].

– الكثير من المنتجات الزراعية أصبحت سلعاً أساسية في قائمة التبادل التجاري سواء على نطاق التجارة الداخلية أو الخارجية مما جعل هؤلاء يتجهون إلى الزراعة[3].

– كثرة الرقيق الذي كان يجلب إلى مدينة رقادة حيث كان يلحق قسم منهم وبصفة خاصة الرقيق الأسود للعمل في هذا القطاع لما عرف من هؤلاء من قدرة على تحمل العمل الشاق فضلاً عن رخص كلفتهم، وهذا أمر لم تنفرد به مدينة رقادة دون مدن العالم الإسلامي بل جرى مثله في الكثير من المدن الإسلامية في العراق ومصر وبلاد الشام[4].

وعليه يمكن اعتبار غرس البساتين وجنات رقادة وما استنبت فيها من صنوف الأشجار والرياحين وما جرى فيها من حياة والتي كانت نموذجاً احتذى الناس به دليلاً أخر على هذا النشاط وعلى جهود الأمير إبراهيم الثاني، مما جعل النشاط الزراعي ينعكس على الثروة الحيوانية أيضاً وكان سبباً ونتيجة له في نفس الوقت، فقد تطلب الأمر زيادة عدد الحيوانات المستخدمة في الإنتاج الزراعي إضافة إلى زيادة

(1) **نجاة، باشا، التجارة في المغرب الإسلامي من القرن الرابع إلى القرن الثامن، ص43.**

(2) **الجنحاني، حبيب، المغرب الإسلامي والحياة الاقتصادية، ص175.**

(3) **المالكي، رياض النفوس، ج1، ص261.**

(4) **المالكي، م. س، ص261.**

الأرض المزروعة لتوفير الغذاء لقطعان جديدة من الحيوانات فضلاً عن تلك التي كانت ترتع في مروج الجنوب لتفي بالحاجة المنزلية من اللحوم والأصواف والجلود والألبان[1].

تبين من ذلك أن الزراعة أصبحت من الضرورات التي تتطلبها الحياة الاقتصادية في مدينة رقادة، فالمحصولات الزراعية والغذائية مثل الحبوب والثمار والكروم والزيتون والتمور وغيرها كانت سلعاً للتجارتين الداخلية والخارجية[2].

2- الصناعة: أن التطور في الصناعة في مصر من الأمصار يؤدي بالضرورة إلى النشاط الصناعي فيه، وفي ذلك يقول أبن خلدون (أن المكاسب أنما هم قيم الأعمال، فإذا كثرت الأعمال كثرت قيمتها بينهم (السكان) فكثرت مكاسبهم[3]. إذ أهتم بالحركة الصناعية وعلل أسباب نشوئها وتطورها والفائدة المحصلة منها، لذلك شهدت مدينة رقادة ابتكار صناعات جديدة لمواكبة التطور وأصبح يمارسها قطاع كبير من الطبقة الشعبية بعد أن حظيت باحترام، مثل: البناء، الخياطة، الرفاه، الصباغ، الخراز، الدباغ، الزجاج، الحداد،... الخ[4]. وفضلاً عن ذلك وجدت فيها بعض الصناعات المتقدمة التي قام بها الأغالبة منها صناعة السفن حيث استمرت دار الصناعة التي أمر بإنشائها الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان لغرض تكوين أسطول بحري دفاعي لمواجهة الأخطار المتأتية من الإمبراطورية البيزنطية، وقد استعين بأخياط مصر الذين كانوا يمتلكون الخبرة والدراية في صناعة السفن[5].

أما صناعة الزجاج الذي كان مظهراً من مظاهر المدينة ومستلزماتها فهناك ما يشير إلى وجودها في مدينة رقادة ويختص حي الزجاجين في المدينة دليلاً على ازدهار هذه الصناعة، كذلك صناعة الخزف المتأثرة بالتقاليد العراقية والشرقية حيث كان الصناع العراقيون يستخدمونها لتنزين واجهات محاريب

(1) **البكري، م. س، ص118.**

(2) **اليعقوبي، م. س، ص350، البكري، م. س، ص40.**

(3) **ابن خلدون، م. س، ص307.**

(4) **البكري، م.س، ص118.**

(5) **سوادي عبد محمد، دراسات، ص238 – 239.**

المساجد وأبواب القصور بزخارف التربيعات الخزفية ذات البريق المعدني مما كان له الأثر الواضح في مدينة رقادة عندما قام الأمير إبراهيم الثاني ببناء القصور[1].

ومن الصناعات المتخصصة التي كانت تعتمد على الإنتاج الزراعي صناعتان أولاهما صناعة زيت الزيتون الذي يستخرج من الزيتون الذي كان ينتج في المناطق الساحلية وفي الأقاليم الزراعية[2]. أما الصناعة الثانية فهي صناعة النبيذ أو الشراب من خلال استخلاصه من الكروم التي تكثر زراعتها في المدينة فضلاً عن صناعة السكر من القصب الذي تنتجه مدينة جلولا وإنتاج العسل الجيد[3].

3- التجارة: شكلت التجارة حجر الزاوية في النشاط الاقتصادي لمدينة رقادة، فقد كانت مركزاً للتجارة العالمية ونقطة لقاء بين المغرب والمشرق الإسلاميين من جهة وبين تجارة البحر المتوسط وقوافل التجارة الصحراوية من جهة أخرى[4]. حيث استقبلت قوافل التجارة من سائر إنحاء المغرب ومن مراكزها في فأس وقرطبة، ولم تكن العلاقات السياسية غير الودية بين هذه الدويلات تحول دون توطيد صلاتها التجارية، فمن جهة ترتبط مدينة رقادة عن طريق القيروان بخط سير القوافل التجارية الخارجة من وإلى القيروان والمس..[5].

أما التجارة التي كانت تحصل عليها إمارتا الخوارج والمدراريون وأمارة الأدارسة من الأندلس فينقلها التجار إلى رقادة عن طريق القيروان بواسطة القوافل التي اعتادت السير على الطرق المعتادة، فتحصل من سجلماسة على السكر والكمون وعن طريف تاصرت وسجلماسة تحصل على السلع السودانية التي كانت تزداد أهميتها على البضائع والمواد الأخرى، أما الثياب القطنية والكتانية والحريرية والأنسجة المطرزة كانت تعد إليها من قرطبة التي نالت شهرة واسعة[6].

(1) **سوادي، م. س، ص**239.

(2) **البكري، م. س، ص**41.

(3) **م. ن، ص**41.

(4) **الجنحاني، م. س، ص**61.

(5) **البكري، م. س، ص**143- 146.

(6) **الحميري، صفة جزيرة الأندلس، ص**21.

كما كان للأسواق دور كبير في إعطاء صورة واضحة عن النشاط التجاري الذي يسود مدينة رقادة أيام الأغالبة وعن حركة التطور العمراني في منطقة المغرب الأدنى، يضاف إلى ذلك أسواق القيروان مثل السوق الكبير الذي يسمى سماط القيروان وسوق البزازين وسوق الضرب وسوق الجزارين وسوق الزجاجين وسوق النحاس وغيرها من الأسواق[1].

رابعاً- الحركة العلمية في رقادة:

شهدت الحركة العلمية في عهد الأمير إبراهيم الثاني نهضة شاملة في مدينة رقادة، فقد تنوعت اتجاهاتها وتعددت اختصاصات أعلامها حتى غطت كافة فروع العلم والمعرفة التي كانت معروفة في رقادة، ولم تعد مقصورة على علوم الدين والفقه كما كان الأمر قبل، وسارت في هذا الاتجاه بخطى حثيثة إلى الأمام مما جعلها تواكب مثيلاتها في المراكز العلمية في الشرق[2].

وعليه أختلف شأنها عن مدينتي العباسية وحبرة رغم ما يجعلها من خصائص كونهما ضواح للقيروان وعواصم سياسية وإدارية للأغالبة، ذلك أنه خلد لها دور بوصفها مركزاً من مراكز العلوم والثقافة بأفريقية في كثير من المصادر والمراجع وهو دور لم يكن نتيجة حتمية لواقعها كعاصمة سياسية ولكنه كان دوراً علمياً وثقافياً واضحاً[3].

والواقع أن رقادة اضطلعت بدور ثقافي مهم في نشر وازدهار العلوم التجريبية على وجه الخصوص، لأن الحياة العلمية في أفريقية كانت قد تطورت كثيراً في عهد الأغالبة وكان أبرز ما ميز الحياة العلمية في عهدهم التقدم في الدراسات الشرعية ثم التقدم في العلوم التجريبية التي بلغت غاية من الازدهار آنذاك[4].

(1) **ابن الصغير الماكلي، أخبار الأئمة الرستمية، ص13.**

(2)**حسن حسن، ورقات عن الحضارة العربية بأفريقية، ص199.**

(3)**حسن حسن، م. س، ق1، ص26-30.**

(4) **م. ن، ص30.**

وكان الفضل في أنشاؤها وازدهارها يعود إلى إبراهيم الثاني الذي كان شديد الولع بالعلوم الرياضية[1] والحكمة، لذلك فما ان انتهى من بناء رقادة حتى بادر بإنشاء (بيت الحكمة) التي قصد من إنشائه أن يأتي على غرار بيت الحكمة العباسي في بغداد، وقد وصفها علماء المضاربة المحدثون بأنها كانت بمثابة أول أكاديمية علمية في المغرب كله[2]، والتي كانت تضم خمس قاعات فرشت جميعها بالحصير واللبود الجميلة ونظمت بها المقاعد لجلوس المدرسين وكبار الزوار[3]، وقد خصصت أحدى هذه القاعات لتكون مكتبة فاحتوت على عدد ضخم من الكتب نضدت في خزائن وأنصاف خشبية في شتى الموضوعات العلمية والثقافية وإلى جانب الكتب كانت هناك خزائن تحفظ فيها الآلات الفلكية وأدوات البحث العلمية الأخرى[4].

ولقد دأب الأمراء الأغالبة على تعهد (بيت الحكمة) بالرعاية والتشجيع وهم إبراهيم بن أحمد مؤسس رقادة وأبنه عبد الله وحفيده زياد الله بن عبد الله[5]، وجهدوا في أن يقتفوا نهج الخلفاء العباسيين الذين أسسوا ورعوا (بيت الحكمة البغدادي)، لذلك فقد عملوا على أن يزودوا هذا البيت برقادة بالمصنفات العلمية والفلسفية على وجه الخصوص وبذلوا الأعطيات الكبيرة في اقتناء تلك المصنفات وخاصة من بغداد، وكانوا في الوقت نفسه يرغبون ويهنؤن فطاحل العلماء للقدوم إلى (بيت الحكمة) برقادة[6]، كما الحقوا ببيت الحكمة هذا قسماً للترجمة عن اللغة اللاتينية وغيرها[7].

وخصصت قاعة أخرى لأعمال النسخ إذ كان مرقعاً للنساخ أن يقصدوا هذه الجامعة لاستنساخ ما تضمه مكتبتها من كتب سواء لأنفسهم أو لغيرهم بالأجرة، وكانت هذه القاعة تبعاً لذلك تعج بالنساخين في

(1) **م. ن، ص**139.

(2) **الجنحاني، م. س، ص**111.

(3) **حسن حسن، ورقات، م. س، ص**129.

(4) **م. ن، ص**199.

(5) **الكعاك، عثمان، مراكز الثقافة في المغرب، ص**22.

(6) **الكعاك، عثمان، مراكز الثقافة في المغرب، ص**22؛ **حسن حسن، م. س، ص**193 – 196.

(7) **م. ن، ص**212 – 217.

معظم ساعات النهار وكثيراً ما كان الأمير إبراهيم يكلف بعض العلماء بمراقبة بعض الكتب وضبطها ومن الواضح أن أعمال الترجمة التي أنجزت في هذا العهد قد تمت في هذه القاعة، حيث كانت تقدم للمترجمين كا ما يحتاجونه من مساعدة، أما القاعات الأخرى فخصصت للدرس والمناظرة كان الأستاذ يجلس على كرسي ويلقي محاضراته على الطلبة الجلوس بين حسب شهرته ونوع المادة العلمية التي يتناولها في تلك المحاضرة كما كان يساعد الأستاذ معيدون يتولون الرد على أسئلة الطلبة بالشرح والتوضيح[1].

والحقيقة أن دور (بيت الحكمة) برقادة لم يقتصر على العلوم الرياضية والطبية فحسب وإنما كانت رقادة وبيتها ذاك مجالاً لمناظرات الكلامية بيت أهل السنة وغيرهم، ويأتي على رأس المتكلمين والفلاسفة الذين أهوا رقادة الفقيه المتكلم سعيد بن الحداد والفيلسوف أبو بكر التمودي وغيرهما[2].

ومما ساعد ازدهار العلوم العقلية هذه هو حب أخر الأمراء الثلاثة للدولة الأغالبية للعلم والعلوم العقلية على وجه الخصوص، وقد ذكر أن هؤلاء الثلاثة الأمراء كانوا يجيدون التحدث باللغة اللاتينية[3]، ويرى الأستاذ حسن حسن أن (بيت الحكمة) كان مكانه في أحد فصور الأمير إبراهيم بن أحمد مؤسسه ومؤسس رقادة كما عرضنا، ومما هو جدير بالذكر أن المراجع حفظت لنا اسم واحد من مشرفيه في عهد الأمير زياد الله الثالث وهو ابو اليسر الشيباني الذي قدم مهاجراً من بغداد وكان حجة في العلوم وبخاصة اللغوية منها إلى جانب براعته في العديد من العلوم العقلية وبخاصة الرياضيات حتى لقب بالرياضي، وقد وصفه الرفيق القيرواني (كان ضارباً في كل علم وأدب)[4]، مما يقدم لنا فكرة واضحة عن علمه الغزير

(1) **حسن حسن، م.س، ص**199.

(2) **المالكي، ص**317.

(3) **م. ن، ص**200 – 201.

(4) **حسن حسن، م. س، ص**245.

وسعة اطلاعه وقد تخرج على يده جيل من الأدباء واللغويين في أفريقية[1]. كما نقل إليها عدة كتب لغوية هي دواوين لبعض مشاهير شعراء المشرق التي لم تكن قد وصلت إليها بعد[2].

وبقي أن نشير إلى نقطة مهمة رافقت بيت الحكمة هذا أن بعض الباحثين يستخدمون أحياناً لفظ بيت الحكمة القيرواني[3] مما يشكل معه الباحث في شأن نسبته إلى رقادة ولكن حسن حسني وغيره يؤكدون على أن هذا البيت أقيم برقادة وظل هناك طيلة مدة حكم الأمراء الأغالبة الثلاثة المذكورين وبعض من عهد الدولة الفاطمية، وعليه فقد ظل بيت الحكمة هذا برقادة يؤدي دوره في الحياة العلمية وبخاصة التجريبية منها طيلة مدة حكم الدولة الأغالبية وعندما سقطت الدولة وقامت الدولة الفاطمية ورث الفاطميون في جملة ما ورثوه (بيت الحكمة) هذا غير أنهم حاولوا تغيير طابعه التقليدي، فأصبح في عهدهم وطيلة بقاء عاصمتهم في رقادة قبل بناء المهدية مكاناً لبث الدعاية للمذهب الأسماعيلي والترويج له[4].

ومما يذكر في هذا الصدد أنهم عندما رحلوا إلى مصر، اخذوا معهم الكثير من المصنفات التي كان بيت الحكمة يحتوي عليها[5]، ومما تقدم يتضح أن بيت الحكمة أنما أنشأه أمراء بني الأغلب بنية نشر الثقافة العالمية في غير المادة الدينية التي كانت دراستها موقوفة على جامع عقبة وعلى كثير من مساجد القيروان وغير القيروان وفي دور الفقهاء والمحدثين[6].

الخاتمة (خلاصة البحث وأهم الاستنتاجات)

من خلال دراسة الجوانب العلمية والعمرانية والاقتصادية لمدينة رقادة عاصمة الدولة الأغلبية للمدة (263-296هـ) توصلنا الى النتائج الآتية:

(1) **حسن حسن، م. س، ص245.**

(2) **م. ن، ص245.**

(3) **الكعاك، تاريخ الجزائر، ص159.**

(4) **حسن حسن، م. س، ص205 – 209، 210.**

(5) **حسن حسن، م. س، ص210.**

(6) **م. ن، ص209**

1- كان للموقع الجغرافي لمدينة رقادة أثر مهم في ازدهار الجوانب العمرانية والاقتصادية والعلمية فيها.
2- تماشياً مع تطور الحياة الفكرية لمدينة رقادة تم تأسيس (بيت الحكمة)، وهو مؤسسة علمية ثقافية اضطلعت بدور الترجمة للكثير من الكتب الأجنبية إلى اللغة العربية وبالعكس.
3- أصبحت مدينة رقادة مركزاً علمياً مرموقاً يقصده أهل العلم والمعرفة من شتى بقاع العالم الإسلامي، لغرض التزود بالعلم والمعرفة.
4- ارتبطت مدينة رقادة بعلاقات تجارية مهمة مع مدن إسلامية متعددة، كان أهمها مدن أفريقية وبلاد الشام ومصر، وكان ذلك عن طريق مدينة القيروان ساعدت على النمو التجاري فيها.
5- رعاية الأمراء الأغالبة لهذه المدينة جعلها مركز أشعاع فكري وحضاري وسياسي مهم في أفريقية.
6- أصابها الخراب والدمار بعد السيطرة الفاطمية عليها والانتقال منها إلى المهدية سنة (308هـ) مما جعلها تصبح بحكم المهملة في التاريخ.